# الباب الثامن

## الطفولة

معناها . أهميتها . أدوارها .

# الطفولة

## معناها :

كثير من الناس يخطئون فى تأويل معنى الطفولة ، وفى تحديد أمدها ، فمنهم من يعتبرها إلى الثانية عشرة من عمر الطفل ، ومنهم من يبالغ فيجعلها إلى العاشرة فقط ، والحقيقة أن الطفولة هى المدة التى يعتمد فيها صغار الكائنات الحية على كبارها فى مأكلهم ومشربهم ، ومأواهم ، وسد مآربهم ، والدفاع عنهم ، وتدريبهم على مواجهة الحياة : وبعبارة أخرى هى العهد الذى يتحرر فيه المخلوق الحى من مسئوليات الحياه ، اللهم إلا ما قد يتدرب عليه تدريجا من أبسط المهمات ، وما يكتسبه شيئا فشيئا من التقاليد السائدة بين عشيرته . فطول أمدها إذن متوقف على تمام تكوين الطفل ، وعلى استيفائه حقه من التدريب على القيام بشئون الحياة اللازمة له ، بحيث يصير نافعا لنفسه ولمجتمعه .

وعهد الطفولة يختلف باختلاف الحيوان ، فكلما ارتقت المخلوقات زادت مدة طفولتها كى تتدرب على القيام بأعباء الحياة التى تنتظرها . فالطائر الصغير يبقى فى حضانة أمه وأبيه ، يطعمانه ويحيطانه بالعناية ، ويؤديان مصالحه ، حتى يقوى ويستطيع الطيران ؛ ومن ثم يمكنه الحصول على طعامه وتأدية حاجاته الحيوية بنفسه . وبقدرته على ذلك تنتهى مدة طفولته .

والقطة الوليدة تظل فى حماية أمها معتمدة عليها فى تغذيتها ، والمحافظة عليها ، وتدريبها على القيام بأعمالها المستقبلة مدة طفولتها التى تنتهى متى استطاعت أن تتولى شئون نفسها بنفسها .

وكذا الطفل الوليد ، يبقى تحت رعاية والديه ومربيه مدة طويلة . ولكنه لا يبقى طول حياته عاجزاً عديم النفع ، يعتمد على غيره ؛ بل هو

يرقى ويتطور ، ويتعلم من أبيه وتلقنه أمه ، وتهذبه الجماعة التى ينشأ بين أفرادها ، فيصبغونه بتقاليدهم ومعتقداتهم ، ويقلدهم فى لغتهم وطرق معيشتهم ومختلف شئونهم .

## أهميتها :

وعلى ذلك ، فالإنسان أطول الحيوانات طفولة ؛ وذلك ليحصل فى أثنائها على ما يعينه على مواجهة الحياة شيئا فشيئا . وهذا أمر تقتضيه الطبيعة ، فعقل الإنسان الذى ميزه الله به على سائر المخلوقات الحية ، وقابليته للتعلم ، وحاجاته ومطالبه الحيوية الكثيرة ، تستدعى طول عهد الطفولة . والتربية الحديثة تهتم اهتماما كبيراً بهذا العهد من حياة المرء ، ويكفى أنها اعتبرته عهدا قائما بذاته ، يجب أن يتمتع به الطفل . ولذلك حتّمت على المربين استغلال نشاط الطفل الذاتى الذى يبدو فى الطفولة بشدة وبكثرة ، فى تربيته وتعليمه ، وجعل أعماله ضروبا من اللعب حتى يقبل عليها فرحا مسرورا ، وحتى يستفيد من تجاربه وخبرته عن الحياة فى نشأته الجسمية والعقلية والخلقية .

وبذلك كله نضمن أساسا متينا نبنى عليه حياة الطفل المستقبلة . فدور الطفولة إذن هو دور استعداد للحياة ، ولا غرابة أن يكون كذلك لأنه : —

١ — عصر ظهور الغرائز والميول الفطرية وتهذيبها وتعديلها . ومن المعلوم أن هذه الغرائز وتلك الميول ، هى أساس تصرفات الطفل المختلفة فى هذه الحياة ، وأنها القوى التى توجهه فى كل أطوار نموه ، فكل ما نراه من اعوجاج فى خلق بعض الأفراد ، وشذوذ فى البعض الآخر ، إنما يرجع إلى سوء توجيه الغرائز . وعلى العكس من ذلك ، إذا هى استوفت حقها من العناية بإشباعها إشباعا معقولا ، وتعديل مثيراتها ، ورفعها إلى المستوى الذى

تعمل التربية لتحقيقه ، ارتقت من المستوى الفطرى الحيوانى ، إلى مستوى إنسانى راق ، ومن الغرض المـــادى الفردى ، إلى الغرض المعنوى ، الاجتماعى . وبذلك ينشأ الطفل اجتماعيا محققا آمال التربية الحديثة .

وعلى كيفية توجيه الغرائز فى أطوار الطفولة المختلفة ، تصلح تربية الطفل أو تفسد ، وعلى آثارها يسعد أو يشقى .

٢ — عصر تكوين العادات والصفات الحميدة ؛ إذ لاشك فى أن جهاز الطفل العصبى وقتئذ يكون مرنا حساسا ، يتأثر إلى درجة كبيرة بما يحيط به من مختلف المؤثرات .

فكيفية معالجتنا لغرائزه المتنوعة ، وميوله المتباينة يؤثر فى تكوينه ، إذ ينشأ عن ذلك عادات وصفات مختلفة تكون حسنه أو سيئة ، تبعا لمعاملة الغرائز والميول . وهذه الصفات وتلك العادات قد ترسخ فى نفسه ، فيصعب استئصالها ، وهى التى تدفعه لأن يتخذ مسالك معينة فى الحياة .

٣ — عصر تهذيب الميول والوجـــدانات وتكوين العواطف ؛ فإن الوجدانات المهذبة والعواطف السامية ، تجعل الإنسان محترما محبوبا ناجحا فى الحياة ، فهى إن تكونت ، دفعت صاحبها إلى فعل الخير ، وجعلته يشعر بلذة الحياة . ويتمتع بجمالها ومسراتها ؛ وإن انعدمت فى الإنسان نشأ شاذا فى خلقه ، متقلبا فى مشاعره ، فظا فى إحساســـه ، لا يعبأ بأحوال المجتمع ولا يكترث لغيره من الناس . فالعواطف والوجدانات السامية ، التى تغرس فى الطفل منذ طفولته ، تنشئه نشأة طيبة يكون لها أثر كبير فى إسعاد حياته وحياة من يحيطون به .

٤ — هو بوجه عام عصر التربية الصحيحة والتعليم الملائم . بل هو أوفق

الاوقات لذلك . إذ أن الطفل النامى الذى لا تثقله مطالب الحياة ، وحاجيات المعيشة ، لاعتماده على الكبار فى ذلك ، يكون مملوءا حيوية ونشاطا ، يجعلانه قابلا للتربية والتعليم .

والتربية الأولى التى يؤخذ بها الطفل هى التى تشكله جسما وعقلا وخلقا . وتصوغه فى قالب خاص ينطبع به فى أطوار حياته المختلفة . ولو أمعنا النظر ، لوجدنا أن كل الحالات الجسمية والعقلية والخلقية تقريبا ، تتأثر بتكوين الطفل الأول الذى أكسبته إياه تربيته المبكرة ، فى سنى حياته الأولى .

وإن التجارب لتدلنا على أن إرجاء التعليم إلى سن متأخرة ، يجعل الناشىء لا يكتسب منه إلا القليل وبصعوبة وفى بطء .

ويتبين لنا من كل ماتقدم ما للطفولة من عظيم الأهمية فى حياة المرء ، ويكفى أن نقول إن عليها تبنى كل حياة الطفل المستقبلة .

## أدوارها :

غير أننا إذا لاحظنا نمو الطفل من ولادته إلى بلوغه ، وجدنا أنه يمر فى أدوار متتالية يتميز كل منها بميزات بدنية وعقلية خاصة ؛ ورأينا أن هذا النمو سريع جدا فى بعضها ، وبطىء فى البعض الآخر . وقد يمتد عهد الطفولة الى سن ٢٥ سنة . ولكن كثيرا من العلماء اصطلحوا على أن يطلقوا عهد الطفولة على المرحلة من الولادة إلى قبيل عهد البلوغ ، أى المدة التى يكون فيها الطفل معتمدا كل الاعتماد على والديه . ويمكن تقسيم هذه المدة من حياة الطفل إلى مرحلتين ، متميزة الواحدة منهما عن الأخرى .

١ — الطفولة الأولى : وتنقسم إلى قسمين : الأول من الولادة إلى السنة الثالثة من عمر الطفل ؛ والثانية من السنة الثالثة إلى السنة السابعة . والطفولة

الأولى هى الدور الأول من حياة الطفل ، وفيها يعتمد كل الاعتماد فى مطالب حياته على أمه ويتميز هذا الدور بما يأتى :

( ا ) تكون الأعضاء غير تامة النمو ، كما أن الحواس فى البداية تكون غير قادرة على القيام بوظائفها ؛ فالسمع يكاد يكون معدوما ، والبصر يحس بالضوء إحساسا غامضا . والشم يكون ضعيفا جدا ، أما اللمس فيكون أقواها . ويبقى الطفل هكذا بضع أسابيع ، ثم تقوى بعد ذلك حواسه على الإدراك بسرعة .

ويقوم الطفل فى عهد الطفولة المبكرة بحركات غريزية وعكسية . كالضحك والبكاء والمص وتحريك الجفون والأقدام والأيدى . ويقوى على الحركة شيئا فشيئا ، حتى يستطيع الحبو ثم المشى . وفى أثناء هذه المدة يبدأ الطفل فى معرفة من حوله ، ويتدرب على نطق كثير من الألفاظ والعبارات ، وبذلك يمكنه أن يقرن المسمى باسمه ؛ وإذ ذاك ترتقى حياته العقلية ، وتنمو مدركاته الحسية تبعا لتجاربه .

( ب ) يكون انتباه الطفل مقصورا فى بادىء الأمر على ما يشوقه ويؤثر فى حواسه ، كالأشياء البراقة والألوان الزاهية والأصوات المتنوعة . أما قدرته على الانتباه الاختيارى فتظل محدودة .

( ح ) تكون ملاحظته ضعيفة ، وينشأ عن ذلك ضعف إدراكه الحسى .

( ى ) ينمو خياله بالتدريج حتى يصبح أقوى ما يمكن فيما بين الثالثة والسادسة ، إذ يصل إلى درجة كبيرة لا يستطيع معها التفريق بين الحقيقة والخيال . ولذلك يميل إلى سماع القصص الخرافية ، كما يميل إلى التقليد التمثيلى

( هـ ) يتجلى فى الطفولة الأولى فيما بين الثالثة والسابعة النشاط الذاتى

بأجلى مظاهره ، وتتضح كثير من الغرائز كالاستطلاع والحل والتركيب والمقاتلة والاقتناء وغيرها ، وكذا الميول الفطرية العامة : فاللعب يظهر بوضوح ، ويكون غرض الطفل منه مجرد اللهو والعبث . والتقليد كذلك ، ويتدرج من النوع المنعكس ، كابتسامة الطفل لابتسامة أمه ، إلى النوع التلقائى ، الذى به يقلد لغة أبويه وحركاتهم وأفعالهم وغير ذلك . وتكون قابليته للاستهواء قوية ، ويظهر فيه الميل الفطرى إلى مشاركة غيره وجدانيا فى كثير من الأوقات . فهو يفرح لفرح أمه . ويغضب لغضبها وهكذا .

وتستنفد كثير من طاقة الطفل الحيوية فى نمو جسمه وعقله ، ولذا يشعر بالتعب بسرعة ، ولا يستطيع إتقان القيام بالأعمال الدقيقة كالكتابة والرسم ونحوهما . وذلك لعدم وجود الاتصال الكافى بين أعصابه ، وعجزه عن ضبط حركاته .

( ٦ ) ينزع الطفل دائما إلى الأنانية وحب النفس ، ولا يكترث بالتقاليد الاجتماعية التى يكتسبها شيئا فشيئا باتساع بيئته الاجتماعية ، وبمخالطة غيره .

٢ — الطفولة الثانية : من السنة السابعة إلى السنة الثانية عشرة ، وتعرف بدور الغلومة أو البنوتة . وتتميز بما يأتى :

١ — يدخل الطفل هذه المرحلة وقد نما جسمه ، واكتسبت أعضاؤه مرانا وقوة ، وأصبحت صحته على أحسن حال . وهذا الدور يختلف عن الدور السابق فى أنه دور تكوين واستقرار ، لا دور انتقال ، لأن النمو يقل فى أثنائه ، بينما أنه كان سريعا فى الدور السابق . لذلك فالطاقة الحيوية للطفل التى كان يستخدم معظمها فى نموه الجسمى فى الدور السابق ، تصبح متوفرة فى هذا الدور . ويتضح لنا هذا من شدة نشاطه وكثرة حركته ، ومن قدرته على مواصلة أعماله مدة أطول من ذى قبل ، دون أن يعتريه التعب ، لأن مقاومته

له تكون كبيرة . هذا إلى أنه يستطيع القيام بأعمال أدق كثيرا من أعماله السابقة كالكتابة والأشغال والرسم وغيرها ، ويرجع ذلك إلى زيادة الاتصالات العصبية وترابط بعضها ببعض .

ب — تنشط الحواس ويصير تأثرها بما تقع عليه من الأشياء قويا سريعا . ونتيجة ذلك أن الإدراك الحسى يقوى ويرقى ، بحيث يصبح فى مقدور الطفل أن يدرك كثيرا من الفوارق بين الأشياء المادية ، ويصل به التمييز بين المدركات الحسية إلى حد كبير من الدقة .

ح — تقوى ذاكرته فى هذا الدور ، وربما تكون أقوى منها فى أى دور آخر .

و — يخطو التفكير خطوة كبيرة ، إذ يقوى فى الطفل الإدراك للأشياء العامة كما يستطيع أن يعلل ، ويناقش ، ويربط الأسباب بنتائجها فى دائرة المحسات .

هـ — يزداد انتباهه قوة ، فيستطيع أن يحصره فى الأشياء أو الموضوعات التى تلائمه ، لمدة معقولة من الزمن . ولكنه يكره السير على وتيرة واحدة ، ويمل بسرعة العمل الواحد .

و — يتغير خيال الطفل عما كان عليه فى الدور السابق ، إذ يصبح ميالا لأن يُعْمِله فى دائرة الحقيقة والواقع ، فيتخيل ما يعرف أن له وجودا فى الحياة .

ز — تقوى فيه كثير من الغرائز السابقة ، وتنضج غريزة حب الاجتماع حوالى التاسعة . ويقل ميله للاستهواء لارتقاء تفكيره . أما ألعابه فتكون تعاونية ؛ وكثيرا ما تظهر فيها روح المنافسة . وترتقى أغراضها تبعا لنمو عقله .

ح — والطفل فى هذا الدور لا يزال غير قادر على فهم واجباته الأدبية

نحو صالح المجتمع ، فهو ما زال عاجزا عن مقاومة دوافع الأعمال والأقوال ، التى قد لا تتفق وما يراه الناس مناسبا فى الحياة الاجتماعية من العادات والأخلاق .

. . .

## دور البلوغ :

ولكى نوفى البحث حقه ، نرى أن نذكر كلمة مختصرة عن دور النمو الذى يلى دور الطفولة ، وهو دور البلوغ الذى يبتدىء من حوالى الثانية عشرة إلى السادسة عشرة .

وهذه المرحلة أخطر مرحلة فى حياة الناشىء لما لها من الأثر الدائم فى تكوينه ولذلك اعتبرها الكثيرون أهم مراحل الحياة إذ يحدث فيها عدة تغييرات فسيولوجية ( جسمية ) ونفسية ، يجب مراقبتها أشد مراقبة ، وإلا أتت بآثار سيئة فى صحة الطفل وعقله وخلقه . وذلك نتيجة اشتداد العواطف ، وتيقظ الغريزة الجنسية . وفيها أيضا تظهر ميول جديدة . فالبالغون ينظرون إلى الحياة نظرة تختلف عن سابقتها فى دور الطفولة . كما أنه فى هذا الدور يتم تكوين شخصياتهم وأخلاقهم التى بها يتميّزون فى الحياة .

وأهم مميزات هذه المرحلة هى : —

١ — يكون نمو البدن سريعا جدا من حيث الوزن والطول ؛ ويبلغ نموه الحد الأقصى فى سن الخامسة عشرة ؛ كما أن القلب ينمو بسرعة عظيمة ، وكذلك يزيد إنتاجه . وهناك ظاهرة هامة ، تلاحظ فى أوائل هذا الدور وهى ، ضعف سيطرة المخ على حركة العضلات ، وتكون نتيجتها عدم ضبط هذه الحركات فى البالغ عند القيام بأى عمل دقيق . وكثيرا ما يلاحظ فى هذه السن على النشء

الضعف والخمول بسبب استنفاد معظم القوه الحيوية فى استكمال النمو الطبيعى .

هذا فضلا عن ظهور عوارض الأنيميا وبعض الاضطرابات العصبية عليهم ، مما يسبب عدم انتظام حركاتهم وتصرفاتهم ، ويقلل من التعاون بين سائر أعضائهم . وكثيرا ما نلاحظ أن البالغ فى بدء هذا الدور لايحسن عملا عقليا ولا بدنيا .

٢ — يقوى التفكير المنطق عند النشء فى هذه المرحلة ، فيتهيأ عقل البالغ لقبول قوانين العلوم ونظريات الرياضة والمنطق وتطورات التاريخ وما إلى ذلك . كما تقوى ذاكرته ، ويرتقى كذلك خياله ، فيصير ابتكاريا عمليا بعد أن كان أداة للعب . وكثيرا ما يظهر فيه الميل إلى تأليف القصص والقطع الموسيقية وغيرها ، إذا كان فى طبيعته استعداد لذلك .

٣ — تكون الانفعالات فى هذه المرحلة ثائرة بشدة ، نتيجة لتقلب مبادىء الطفل وأفكاره . فهو تارة منشرح بآماله وأحلامه التى يود أن يحققها له المستقبل ؛ وطورا يكون عبوسا مكتئبا ، ينظر إلى مستقبله نظرة البائس . ولا غرابة فى ذلك لأن هذا طور البلوغ الذى تبلغ فيه انفعالات الطفل أشدها .

وثورة الانفعالات فى الناشىء ، توجب على المربى ، كيما يكوّن فيه العواطف السامية المؤسسة لشخصيته ، أن يكون صديقا ناصحا له وشفيقا عليه ، حتى يأمن الناشىء إليه ، ويفضى له بأسراره ، فيطلع بذلك على دخائل نفسه ، ويوجهه التوجيه الصحيح المناسب لمقتضى حاله .

٤ — تكتمل الغرائز الاجتماعية فى الناشىء ، بعد أن كانت تغلب عليه الغرائز الفردية من قبل ؛ فيميل إلى تأليف الجمعيات المختلفة ، ومزاولة الألعاب

الرياضية ، والتعاون مع غيره من الناس ؛ وتقوى فيه روح التضحية لمصلحة الجماعة . أما الغرائز الفردية فإنها تتخذ أشكالا أرقى مما كانت عليه فى العهدين السابقين ؛ فمثلا تتطور غريزة حب الاستطلاع فى الطفل من مجرد ميل للوقوف على ظواهر الأشياء ، إلى ميل للتعمق فى البحث ، وتنظيم المعلومات . والوصول إلى قرارة الأمور وأصول المعرفة .

ولما كانت نزعة التدين من مظاهر هذا الطور ، وكانت نظرة البالغ إلى حقائق الدين وقواعده تختلف عما كانت عليه من قبل ، لأنه لا يقبل من المعلومات إلا مايستسيغه بعد نقده وتحليله ، وجب علينا أن نحيطه بجو دينى عملى صحيح ، وأن نبث فيه الروح القويم ، كيما يتشرب قلبه بالآداب الصحيحة ، التى تصبح النواة الصالحة لتقويم خلقه . وبذلك يقوى على كبح جماح نفسه ، ومحاسبتها على كل صغيرة وكبيرة قد يأتيها مخالفة للمبادىء الأخلاقية والدينية التى غرست فيه .

ويتخذ الناشىء عادة فى هذا الدور مثلا عليا يحاول أن يحاكيها فى أفعاله وحركاته . وقد يتخيَّر مُثُلَه من بين والديه ومربيه وأقاربه والمعاصرين البارزين ؛ وقد يتجه إلى تقليد أبطال التاريخ وغيرهم ممن يثيرون إعجابه . لذلك يجب أن نكون مُثُلا صالحة ليقتدى بنا أطفالنا ، فينسجون على منوالنا وينشئون بذلك نشاة طيبة .